شبه الجزيرة العربية



٣٢ - الوثيقة

كما وصفها "الي ستينين"

في النصف الثاني للقرن التاسع عشر

بقلم : الدكتورة تي. إن. لبيدنسكايا

درس المجتمع الروسي موضوع شبه الجزيرة العربية بالتفصيل وذلك في النصف الثاني للقرن التاسع عشر . والمواد التي كانت قد نشرت فيما قبل من حين لآخر لم تكن تنشر بانتظام، وكان معظمها مذكرات للحجاج أو تراجم من لغات أوروبا الغربية . وبرزت ضرورة دراسة كاملة لبلدان الشرق الأدنى في آخر هذا القرنٍ . وكان الباحث الذي قام بهذه المهمة هو "ستينين"، وكان عضواً في الجمعية الجغرافيـــة الإمبريالية بسان بطرسبرج .

لقد أتقن مهمته فنظم المعلومات عن بلدان البحر المتوسط الشرقية والجزء الحدودي لشبه جزيرة البلقان . ثم أصدر كتابه المعنون "الشرق – بلدان الصليب والهلال" في عام ١٨٩٢م[١] ويحوي ٥٠٠ صفحة وأكثر من مائتي صفحة منٍ صور متعددة وأربعة وستين صفحة من النقوش المحفورة وفهرساً لأسماء خاصة وأسماء جغرافية . ويذكر هذا الفهرس أكثر من ٣٠٠ موقع جغرافي .

ويتكون البحث الجغرافي التاريخي الإثنوجرافي من ثلاثة أجزاء :

القسم الأوروبي - والقسم الآسيوي - والقسم الأفريقي .

ويقع بحث الجزيرة العربية في الفصل السادس عشر ضمن الجزء الآسيوي، ويتكون من ٣٣ صفحة وثمانية عشر من النقوش .

وهذا الفصل والكتاب، كلاهما موجهان إلى أكثرية الروس . والكتاب مكتوب بلغة بسيطة . واستخدمت فيه مصادر كثيرة، سواء كانت أجنبية أو روسية إثنوجرافية وتاريخية وأدبية وإحصائيات ووثائق جمعت فيما مضى كمصادر أساسية .

أولاً يشرح "ستينين"الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية كحدودها وأبعادها وخصائص المنطقة المحايدة والبلدان الواقعة في شبه الجزيرة وكذلك خصائص أكبر الصحاري والجبال والوديان والتقاليد المتبعة وأوضاع الطقس . ثم يشرح المعادن والزراعة والأسهم المالية والعلاقات التجارية والنباتات والحيوانات . ويهتم الكاتب اهتماماً كبيراً بملامح خاصة للمنطقة العربية الشرقية وتطويرها . ووفقاً لـ "ستينين" فإن ثلثي منطقة شبه الجزيرة العربية صحراوية قاحلة . ولا توجد أنهار فيها . وأن أكبر الأودية هو "وادي الرمة"، ويمتد إلى حوالي ٢٥٠ كيلومتراً ولا تقل مساحته عن مساحة وادي نهر "الراين" .

وتوجد في الشمال صحراء النفود الكبرى حيث لا توجد آبار للمياه إلا نادراً وعلى أبعاد كبيرة من بعضها البعض . لكن بها أجود المراعي حيث ترسل المواشي هناك كل ربيع لترعى"[٢] . وفي الجنوب تقع صحراء "الدهنا" حيث الحرارة مرتفعة ليلاً ونهاراً . وفي جنوبها "الأحقاف" ذات الرمال اللينة حيث تغوص فيها الأقدام وتبتلع الناس أحياءً .

ويشمل البحث وصفاً مفصلاً للصخور المرتفعة حول نجد (١٢٠٠ متر فوق سطح البحر) . ويؤكد الكاتب على وجود مساحات خصبة واسعة هناك، نجدها أثناء موسم الأمطار (من نوفمبر إلى فبراير)، قد اكتست بالخضرة الكثيفة . وترجع تربية الخيول النجدية قصيرة القامة لقبيلة "القوية"[٣] .

ولقد نجحت القبائل البدوية ومنها "مطير" و"بني خالد" و"الظفير" و"شمر" في تربية الخيول[٤] .

إن سواحل شبه الجزيرة العربية واسعة وصخرية لحد كبير، ويصعب الوصول إليها باستثناء الساحل الغربي الذي يشكل حافة أرض رملية واطئة أي تهامة . ويسهِّل الساحل الواسع تكوين خلجان تساعد على تطوير الملاحة والتجارة .

ويمتد الساحل الشرقي "الاحساء" من شط العرب إلى جزر البحرين ويشكل ولاية يبلغ عدد سكانها ١٦٢,٠٠٠ نسمة . وبالقرب من شط العرب تقع المدينة التجارية "الكويت" (القرن أو القرين) ويبلغ عدد سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة . والميزة الخاصة للكويت هو مينائها الممتاز . ويحكم البلاد حاكم عربي بالوراثة . والميناء الثاني هو "القطيف" وعدد سكانها ما بين ٢٠ و٣٠ ألف نسمة وموقعها في أرض خصبة لكن طقسها مهلك للروس . وبعيداً عن الساحل تظهر مدينة "الهفوف" (٢٥,٠٠٠ نسمة) و "المبرز" بعيداً عن الشاطئ حيث يسكنها حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة .

ويمتد أرخبيل البحرين بالقرب من الساحل الشرقي . والبحرين غنية جداً حيث توجد المراعي والبساتين والعيون المائية بكثرة . والمهنة الرئيسية لسكانها (٧٠,٠٠٠ نسمة) صيد اللؤلؤ وزراعة النخيل والملاحة . وعاصمتها المنامة (٢٥,٠٠٠ نسمة) التي تقع في "أوال" وهي أكبر جزيرة في الأرخبيل . ويملك سكان المدينة ١٤٠ مركباً للتجارة الساحلية و٣٠٠٠ زورق لصيد السمك .

تبلغ صادرات البحرين مليوناً و٢٢٠ ألف روبل ، والواردات ٩٢٧ ألف روبل . والدخل السنوي للشيخ الحاكم يبلغ ١,٨٣٠,٠٠٠ روبل .

وتقع سلطنة عمان في جنوبي شرق الجزيرة العربية "دولة إمام مسقط" التي تشمل تسع ولايات . ويمتد الساحل الصخري العماني ما بين خليجين، أي خليج رأس الحد وخليج مسندم . ويقسم مسندم إلى قسمين، شق عريض يمكن للسفن أن تمر به . ويقع الجبل الأخضر وارتفاعه ألفا متر على بعد من ٨ إلى ١٥ كم منه .

وتمتد العاصمة في أسفل الصخور ويبلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة من أجناس مختلفة . وبعد ذكر البيانات التاريخية عن عمان وسرد أحداث الحكم الطويل الرائع للسيد سعيد الذي دام ٥٢ عاماً، يرجع "ستينين" إلى البيانات الحديثة . ويذكر حجم

التجارة بأنه ٣٠ مليون فرنك سنوياً . وكانت الصادرات الرئيسية هي التمور والسمك وخيوط القطن واللؤلؤ والحلويات والصبغة الحمراء (للهند) والمأكولات المختلفة .

وتم إعادة بناء مسجد المجلس في مسقط من أصل كنيسة برتغالية . وقصر السلطان مزين بنقوش جميلة مختلفة . وتقع مدينة المطرح غرب العاصمة في خليج مريح، وهي مدينة صيفية للأثرياء .

ثم يتحدث "ستينين" عن نشوء ونمو الدولة السلفية في نجد .

عاصمتها الرياض وعدد سكانها ٣٠,٠٠٠ نسمة . وهي مدينة رباعية الزوايا، وحولها أسوار متينة مع أبراج . وعلى البعد منها بثلاث ساعات توجد آثار العاصمة السابقة "الدرعية" التي قام بغزوها إبراهيم باشا وقام السعوديون بالدفاع عنها .

وفي الشمال توجد ولاية "شمر" حيث يسكنها البدو وعددهم ٤٠٠,٠٠٠ نسمة . ومن مدنها الرئيسية : "حائل" (١٥,٠٠٠ نسمة) وهي مركز لتجارة القوافل بين نجد وكل من مصر وسوريا، و "بريـــدة" (٢٢,٠٠٠ نسمة) وهي مشيخة مستقلة، ومشيخة "عنيـــزة" (٢٠,٠٠٠ نسمة) .

يشرح "ستينين" للقارئ الروسي مبادئ الدين الإسلامي مع سيرة مفصلة للنبي محمد (ص) وفيها يركز على موهبته اللغوية وقدرته على التأثير في عامة الناس . ويحتوي الكتاب على صورة تخيلية للنبي (ص) راكباً البراق متجهاً إلى السماء . وفي الكتاب خلاصة لكافة القصص المتعلقة بالمقدسات الإسلامية وكيفية حشد المسلمين للحج و إقامة فروض الصلاة . كما يشمل الكتاب أيضاً مذكرات الحجاج الروس والمقالات الإعلانية والتراجم التي تشكل أساساً لها .

ويتعين بصفة خاصة أن نذكر الآتي :

- مذكرات أسفار الحاج إسماعيل من "كورغالا" في ولاية "أورنبرج" إلى مكة المكرمة عن طريق آسيا الوسطى وأفغانستان في عام ١٧٥١م[٥] .
- مذكرات سفر محمد أمين من "ياجانشيكيت" في ولاية "كازان" الذي بدأ سفره في عام ١٧٨٣م وعبر القوقاز واسطمبول ومصر[٦] .
- مكة وروعتها[٧] .

– "المدينة وضريح الرسول (ص) من مذكرات سفر "بركهاردت"[٨] .

– "زيارة مكة والمدينة"[٩] .

– "مجلة أدبية عن مواضيع مختلفة"[١٠] .

– "نشرة عن أوروبا"[١١] .

– "المكتبة العامة"[١٢] .

– "الدرويش البريطاني" (حول أسفار ريتشارد برتون)[١٣] .

– "من لندن إلى مكة" أسفار برتون[١٤] .

– "مقال عن السفر إلى مكة لـ "برازيسلافسكي"[١٥] .

"مكة المكرمة" أو "أم القرى" أو "المشرفة" من أحسن المدن في الإمبراطورية العثمانية حسب قول "ستينين" . وعلى خلاف المستوطنات الأخرى في شبه الجزيرة العربية أنها ليست محاصرة بالأسوار . لكنه توجد قلعتان صغيرتان على مرتفعات عالية . ويبلغ عدد سكانها ١٢٠,٠٠٠ نسمة حسب الإحصائيات الرسمية . غير أن هذا العدد مغالى فيه بقدر مرة ونصف المرة . ويشكل العرب ثلاثة أخماس مجموع السكان . وخمس السكان "ملايو" الأصل وهناك هنود وأتراك وأحباش وكذلك بعض الإيرانيين والتتر والقيرغيز . ويحكم المدينة شريف مكة وهو يدعي أنه ينتسب للرسول (ص) .

ويحتوي الكتاب على أوصاف شيقة للمسجد الحرام بيت الله والكعبة وأماكن مقدسة أخرى . وفي بيت الله ١٥٢ قبة مدعمة بعدد كبير من الأعمدة مصنوعة من المرمر والإسفنجيات والصوان ، وتعتبر أعجوبة في الفن المعماري حسب قول "ستينين" .

وشوارع مكة عريضة حسب النظام الأساسي للمدينة وتبدو العشوائية في واجهات المباني فبعضها يلتزم الحدود داخل المجمع بينما يبرز البعض الآخر ويطغى على عرض الشارع مما يتسبب في ضيق الشارع في بعض المناطق . وتكنس الشوارع الرئيسية مرة واحدة يومياً وتضاء بمصابيح الكيروسين والفوانيس ليلاً . وتتكون البيوت من ثلاثة طوابق حسب قول "دوفليتشين" ويرتفع البعض لأربعة وخمسة طوابق مبنية بالحجر والطابوق المحروق . وتطل النوافذ على الشارع على غير ما هو شائع في الشرق العربي . والطابق الأرضي عموماً غير مسكون . وتصل الجدران حتى حافة السقف مثلما هي في روسيا

ولكنها تزيد عنها ارتفاعاً . وهكذا يوجد طابق مفتوح آخر للاستراحة . وتثبت الطوابق والدرجات للسلالم بمعجون خاص مخلوط من الأسمنت (كلس ورماد ورمل)[١٦] .

توجد المشربيات ببيوت الأثرياء وهي شرفات داخلية مغلقة ممتدة على طول الواجهات . وهي مزينة من الخارج بالدرابزينات المزخرفة بأشكال مختلفة . ويثني الكاتب على نظافة البيوت وحسن نظامها وتبيض الجدران دائماً من الخارج والداخل على السواء . كما تكنس الغرف والسلالم بعناية تامة .

والماء في مكة من نوع جيد ومتواجد بوفرة بشكل دائم حتى في أيام تدفق الحجيج، ومصدره "عين زبيدة" الواقعة في سفح جبل "الكرا" على بعد ٧٠ فرست منها . (الفرست : مقياس روسي للطول يعادل ٣٥٠٠ قدم تقريباً)

ويعود تاريخ مصدر الماء في مكة إلى قرون عديدة . وبني مصدر ماء لجبل عرفات في عام ٨٢٧م على نفقة خليفة بغداد هارون الرشيد . وبعد سبعة قرون فيما بعد أي في عام ١٥١٩م في فترة حكم السلطان سليمان القانوني أنشئ مصدر ماء يشبه قصبة هوائية على الطريق في ممر وادي مِنَى منتهية في مكة . والقصبة الهوائية مصنوعة بالحجر المثبت بالكلس . وحفرت بعض الآبار الحجرية في الطريق كما بنيت أحواض طويلة مفتوحة للسباحة بالقرب من "عرفات" لاستحمام الحجاج .

وداخل المدينة توجد شبكة أنابيب مفرعة بما فيها ٤٠ مضخة . والانحدار المؤدي إلى شبكة الأنابيب والقاع كلاهما مفروش بالحجر وتجري المياه في القناة المجوفة . ويجمع الماء بواسطة إبريق مصنوع من القصدير . وكذلك توجد آبار مزودة بكرات ودلاء معدنية رباعية الزوايا وسعتها مائة لتر .

يصطاف المكيون في الطائف (٥,٠٠٠ نسمة) مع حرس مكون من ٤٠٠ جندي . وموقعها من ٧٠ — ٨٠ فرست شرقاً . ويقول "دافلتشين" بأن الجو فيها ليس شديد الحرارة وتهطل الأمطار مرات عديدة في السهول المرتفعة الواسعة (٥١٥٠ قدماً فوق سطح البحر)[١٧] .

ويحيط المدينة سور متين وبه ثلاثة أبواب تفتح في ساعات النهار فقط . وتمتد حولها البساتين على امتداد البصر . وتنقل الخضراوات والعنب والبرتقال والخوخ والمشمش والرمان وغيرها من هنا إلى مكة المكرمة .

وتقع جدة على مسافة ٨ فرست من مكة نحو الساحل (٣٠,٠٠٠ نسمة) . وحسب قول "دافلتشين" يصل هذا العدد إلى ٢٠,٠٠٠ نسمة وتعد أكبر ميناء على البحر الأحمر . ويزورها أكثر من ألف سفينة سنوياً بما فيها ٢٥٠ باخرة . وتوجد صخور تحت مياهها مما يشكل خطراً للسفن، ولذلك لا تبحر السفن في مياهها إلا نهاراً، وترسو على بعد من ٤ إلى ٥ فرست من الساحل حيث ينتقل الركاب وتنقل البضائع من هناك بواسطة المراكب الشراعية .

وقد جاء ذكر قبر "حواء" في ضواحي جدة (طوله ٢٠٠ قدم وعرضه ستة أقدام) مجرد للعلم . وهو مبنى صغير رباعي الزوايا وترتفع فوقه قبة صغيرة بيضاء وتحيطه الجدران .

والمدينة المنورة هي ثاني أكبر مدينة في الحجاز وتسمى "مدينة النبي (ص) " و "المدينة المنورة" . وتقع على بعد ٣٥٠ فرست من شمال مكة المكرمة . وتحتل وادياً واسعاً محاطاً بجبل أحد من الشمال وخيبر من الجنوب . وتحيط المدينة أسوار قوية في أركانها أبراج ولها أربعة أبواب . ولقد أعيد بناء المدينة في عام ١٥٣٥م وتم تجديدها في عهد آل سعود ويقوم على حراسة الأبواب حراس وتغلق في ساعات الليل . ومساحة المدينة المنورة ليست بالكبيرة وهي لا تزيد عن فرست واحد مربع، وتقع ضاحية "مناخة" في الغرب منها وتحيط بها أسوار دفاعية يمتد جانباها حتى أسوار المدينة .

وتمتد المصابيح بطول الشارع العريض حيث تقع القصور والمنازل على جانبيه امتداداً من "أنباري" أي الأبواب الغربية للضواحي . كما يجد مبنى مصري بالغ الروعة يسمى بـ "التكية" في الشمال بالقرب من الأبواب . وعلى الجانب المقابل توجد ثكنات كبيرة ومستشفى عسكري ومنزل المحافظ . وينتهي الشارع بميدان كبير حيث تخيم فيه القوافل، وتوجد فيه أسواق يباع فيها الخبز والخشب والماشية .

و "المناخة" متصلة بالمدينة ببابين أحدهما الباب السوري ويؤدي إلى شارع بالغ الضيق (من ٤ إلى ٥ سازن) ورغم ذلك فهو كثير الاستخدام ومكتظ بشكل دائم ويمر في منتصف الطريق إلى باب الحرم . وهناك شارع أكثر اتساعا يمر بموازاته، وكلاهما مبلطان بالألواح الحجرية ويقوم السكان برشهما بالماء بصفة منتظمة . أما الجزء الثاني من المدينة فتشقه شبكة من الطرق الضيقة المتشابكة والمتعرجة تتقاطع فيها المرات الجانبية[١٨] .

ويتكلم "سليم جيري سلطانوف"، الذي سافر من "أوفا" (بشكيريا) في عام ١٨٩٣م، عن الكثافة المكتظة لبيوت المدينة وانعدام التخطيط لها وضيق المرات الجانبية التي لا تسمح للحركة فيها جنبا إلى جنب لحمارين محملين بالأحمال و يبلغ الزحام مداه حينما يأتي الحجاج طوال شهور الحج الأربعة . ويتسبب عدم وجود زجاج على النوافذ في الإزعاج إذ تدخل الأتربة إلى الغرف حيث تتراكم هناك[١٩] .

ويتوفر الماء في المدينة بقدر كاف . وكانت أنابيب المياه قد امتدت في عام ١٥٩٠م من عين الزرقاء على مسافة ٥ فرست . وتشبه شبكة الأنابيب بالمدينة مثيلتها في مكة، إلا أن الناتج منها أقل، لذلك لا تستخدم تلك المياه في غير أغراض الشرب وإعداد الطعام، أما الأغراض الأخرى فتحفر لها آبار محلية .غير أنه لا توجد مياه جارية حول المدينة وضواحيها لكن توجد المياه الجوفية على أعماق من ٢ إلى ٥ سازين فقط مما يساعد في زراعة النخيل . وتعتبر تمور المدينة المنورة من أجود أنواع التمور لشدة حلاوتها وطعمها المميز .

ويبلغ عدد سكان المدينة المنورة الدائمين حسب الإحصائيات الرسمية ٨٠,٠٠٠ نسمة . غير أن "دافلتشين" يعتقد بأن العدد لا يزيد عن ٤٠,٠٠٠ نسمة . وتتشكل تركيبة السكان من أجناس مختلفة يشكل الحجازيون المحليون منها نصف عدد السكان، ويتكون النصف الآخر من الأتراك والجزائريين والتونسيين والمصريين وغيرهم .

ولقد هاجرت ٣١ أسرة من التتر الروس إلى المدينة في فترات مختلفة لأسباب شتى، وشكلت مستوطنة صغيرة في "المناخة" قبل أربعين عاماً عندما هاجر إلى هناك "عبد الستار" من مواطني "أسترخان" . فقد جمع ٥٠,٠٠٠ روبل في روسيا ليقيم جالية جديدة في مكان جديد، حيث بنى هناك بهذا المبلغ مسجداً متواضعا ومدرسة ذات ٤٠ غرفة و٦ منازل سكنية[٢٠] .

وكانت نسبة الوفيات بين هؤلاء المهاجرين الروس كبيرة ولم تستأنف الهجرة إلى هناك إلا قليلاً، وكان إذا ما توفيت زوجة أحدهم فإنه يعود إلى روسيا ليتزوج بأخرى ويعود بها وبصحبته عدد من البنات ليزوجهن بأخوته من المهاجرين وأبنائه الراغبين في الزواج . ولم يلجأ التتر للزواج بالعربيات خشية قسوتهن وعنادهن وكثرة مطالبهن على حد ادعائهم .

ويقول "سليم جيري سلطانوف" بأن محافظ المدينة المنورة، عثمان باشا آنئذ، كان جركسي الأصل وولد في روسيا . وكان أبو زوجته، هو "غازي محمد"، وهو الابن الأكبر لـ "شامل" الشهير وقد كان مواطنا دائم الإقامة ويتمتع باحترام الجميع وله شعبية بين العرب . وكثيراً ما كان يحكي لهم القصص عن روسيا[٢١] .

ولا توجد صيدليات في المدينة . وتصرف الأدوية بالمستشفى بالمجان . وكما في مكة، كذلك في المدينة توجد المستشفى على أراضي الأوقاف وتمول من تبرعات السلطان عبد المجيد . ويوجد بها طبيب واحد مع صيدلي . ويتكون المستشفى من بيت ذي ثلاثة طوابق وبه ٣٠ سريراً .

وبالمدينة المنورة ١٧ مدرسة يدرس بها ٢٥٠ طالباً . وأكثرها ثراءً هي المدرسة "المحمودية" وكانت تحصل على ليرة تركية واحدة كل شهر، وغير ذلك لم تكن تحصل في المتوسط سوى على "مجديان" (أي حوالي ٣ روبلات و٥٠ كوبك) .

وتتبع جميع المدارس نفس التخطيط . أي طابق واحد رباعي الزوايا أو طابقين وساحة داخلية . وأبواب الغرف صغيرة جداً لا يستطيع اجتيازها إلا واحد منفرد . ولا تزيد غرف المدرسة عن ١٠ أو ١٥ غرفة، عدا مدرسة "المحمودية" حيث يوجد بها ٤٠ غرفة مساحتها ١٢ "أرشين" مربع، ولا يوجد بكل منها سوى نافذة واحدة في زاوية من الغرفة[٢٢] .

ويعالج "سليم جيري سلطانوف" موضوع الهيكل التعليمي أيضاً . وينتقد بصفة خاصة التركيز على جانب واحد في التعليم، وهو العلوم الفلسفية والفلسفة اليونانية فحسب وليس في الإسلاميات . ويتواجد عدد لا بأس به من الطلاب التتر الروس[٢٣]، إذ

يبلغ عددهم ٤٢ طالباً (أي واحد من كل ٦ طلاب) وهم ينتمون إلى مدارس مختلفة غير أن الأكثرية تنتمي إلى مدرسة "كازان" .

ومن بين المدرسين ذكر اسم " السيد علي طاهر" بصفة خاصة . وتجذب محاضراته انتباه الطلاب . وهذا المدرس مخلص في تأييده لروسيا، ويحكي كثيراً عن زيارته لموسكو وأماكن روسيا المختلفة . ويثني على اتباع القانون في الحياة العامة في روسيا ويقول : "إيماننا صحيح، لكن نفتقد العدل في بعض البلدان الإسلامية .

وكل مدرسة بها مكتبة بالإضافة إلى مستودعين لكتب "شيخ الإسلام" محمود عارف أو "المكتبة المحمودية"، ويحتوي كل منهما على ستة آلاف كتاب معظمها مخطوطات وكتب دينية البعض منها نادر .

وحسب قول "دافلتشين"، كل من المدينة المنورة وجزء من مكة المكرمة والطائف يعتبر سكناً إجبارياً لمن يفقد السلطة أو لمن يطرد لأسباب سياسية . ويذكر اسم "غازي محمد" في هذه المناسبة كما ذكر سابقاً .

وأقرب ميناء للمدينة المنورة هو "ينبع" (٥ آلاف نسمة) حسب قول "دافلتشين" ورأس الميناء لا يتسع بدرجة كبيرة ولكنه عميق جداً وتضطر السفن لترسي بعيداً عنه بمسافة "سازين" . وتسمى السفن الكبيرة "سمبوك"، وهي سفن شراعية دون أرضية وتستطيع أن تبحر لمسافات طويلة لكن بجانب الساحل . وترسو أثناء الليل خشية الاصطدام بالصخور الخطيرة[٢٤] .

وتقع المدينة على مساحة رملية ناعمة وهي محاطة من جهة الأرض بجدران الأسوار وبها بابان . والبيوت مبنية من الطابوق المصنوع من كتل المرجان كأساس له، وهي مواد جيدة جداً لاستخدامها في أغراض البناء وهي موجودة بكثرة .

أما "ينبع" فتعاني بشدة من نقص الماء، ويستخدم السكان عملية الترسيب . وتؤدي البالوعات إلى الثقوب في أرضية الشوارع، وأثناء هطول الأمطار يجري الماء خلال تلك الثقوب إلى أحواض مسامية سعتها تتراوح بين ١ إلى ٨ مكعبات ليغترف منها السكان وقت الحاجة .

وتصنع الصهاريج ذات حجم أكبر على بعد نصف "فرست" من جدار المدينة . ويباع الماء منها بواقع ٥٠ كوبك للدلو . إضافة إلى ذلك يملك البدو الصهاريج التي تمتلئ بالمياه وتحملها الجمال ويعرضونها للبيع على سكان "ينبع" . وتعتبر "عين الحلوة" مصدرا آخر لاحتياجات "ينبع" المائية وتقع على مسافة ٢٥ ميلاً ويكلف دلو الماء منها ٦٠ "كوبيك" .

تعرضت "ينبع" لمطر غزير قبل ٤ سنوات وحسب قول "دافلتشين" كانت الصهاريج كلها خالية قبل ذلك التاريخ .

وتحت تأثير البحر والأمطار الشمالية المتكررة فإن الطقس في ينبع أقل حرارة . وينتشر مرض (الحمى) من حين لآخر في ينبع حيث لا يوجد بها مستشفى أو صيدلية أو طبيب .

وأورد "دافلتشين" الجداول التي تتضمن تفاصيل القبائل البدوية وأعدادها والأقاليم التي تجوب فيها . ويصف الأوضاع السياسية السائدة في الحجاز وقواتها المسلحة وحامياتها العسكرية ويقول بأن الضباط في القوات المسلحة أكثرهم من الأتراك والأكراد . ويحصل الجيش على وجبات الطعام على نحو مرض . وينقل خبز الجنود إلى الأسواق في مكة والمدينة حيث يشتريه الحجاج بكل سرور .

يوجه "ستينين" انتباه الروس إلى توافر المعادن والمصنوعات اليدوية المتطورة في شبه الجزيرة العربية . ويقول : أن العرب صناع بارعون مع ذوق سليم . ومنهم نقاشون وحجارون ونجارون، ويصنعون الخرز من عرق اللؤلؤ والمواد الأخرى والتعاويذ والحلي الفضية وقبضات السيوف والخناجر وقارورات البارود وحلي النساء . والمصنوعات اليدوية من المجوهرات تجد الإقبال من الناس . والعباءات الوطنية المصنوعة في الاحساء لا نظير لها من حيث جمال التصميم والتطريز بخيوط الفضة والذهب . وبصفة عامة تصنع الأواني القصديرية والأدوات المنزلية الأخرى من النحاس الأصفر أو الأحمر بصورة مستمرة[٢٥] .

وتفي الزراعة باحتياجات السكان حيث يزرع الشعير والدخن والذرة والبصل والفاصوليا واليقطين والخضراوات . ويزرع كذلك كل من النخيل والبابايا والموز والنارجيل والتين والبانيان الهندي . ويستخدم الصمغ للأدوية .

والإنتاج الرئيسي هو التمر . ويوجد أكثر من مائة نوع من التمور في العربية السعودية وأجودها جليبي وخلوة وبراني وحتلياي ويادي وبيض ولبانة وأدوية . وينقل "ستينين" قول الرسول (ص) "احترم النخلة لأنها أمك"(٢٦) .

وإذا كان العام مواتيا للمنتجات الزراعية وموافقاً لإنتاج النخيل تنتج النخلة الواحدة ٣٠٠ بود من التمر (البود = ٣٦ رطلاً) وتنتج الشجرة الواحدة ١٨٠ رطلاً في المتوسط . وتستخدم العمالة المؤقتة في الحصاد . ويوجد ١٠٠ مستوطن دائم في مستوطنة "شرم رابغ" لكن في فترة حصاد التمر من يوليو إلى سبتمبر في ضواحيها يزداد عدد المستوطنين هنا من ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ مستوطن . وحسب قول "شرباتوف" يتوافر التمر بكميات كبيرة لدرجة أن الناس يطعمون به الحمير والجمال . ويكلف رطل التمر المنتخب ١٠ كوبك .

وتطورت إلى حد كبير عملية تربية الحيوانات . ويتم تربية الخيول والحمير والجمال والجواميس والغنم بصورة ممتازة .

والقصد من تربية الخيول ليس فقط تلبية حاجات محلية بل بشكل كبير بهدف التصدير . وجدير بالذكر بأنه يشكل ارتباطاً وثيقاً بين مصالح البلدان العربية وروسيا . ويقول "شرباتوف" وهو متخصص رائد في هذا المجال ويمتلك مزرعة لإكثار الخيول : "لا يمكن اعتبار الخيول أصيلة إلا إذا كانت خيولاً عربية . وتبقى الخيول العربية أصيلة كما كانت في أيام الرسول (ص) قبل ١٣٠٠عام"(٢٧) .

كان الروس يرغبون في اقتناء الخيول العربية للسباق فقط .

ويوضح الجدول التالي عمليات شراء ونقل الخيول العربية إلى روسيا عام ١٨٨٨م(٢٨) :

(أ) الفحول

الاسم	سلالة الأم	سلالة الأب	عام الميلاد	اللون	اسم المالك
بولات	كهلان عجوز	منيحي بن شيل	١٨٨٥	رمادي	الكونتستروجانوف
سوتم الكريش	صقلاوي جدران	صقلاوي جدران	١٨٨٣	رمادي	"
شيخ	منيحي لاجرا	خيلان عجوز	١٨٨٦	رمادي	"
أمير العرب	خيلان الكرش	ابين شراك	١٨٨٣	أحمر	"
القادر	خيلان الكرش	منيجي بن شيل	١٨٨٢	أبيض	الدوق شرباكوف
فارس	إيبان شرك	خيلان رسل فدوى	١٨٨٦	أبيض	"

(ب) الأفراس

الاسم	سلالة الأم	سلالة الأب	عام الميلاد	اللون	المالك
عنزي	إبيان شراك	منيحي بن شيل	١٨٧٧	أبيض	الكونت استراجانوف
عرب	صقلاوي جدران	صقلاوي جدران	١٨٨٦	رمادي	"
غزال	خيلان رسل فدوى	سمخان الجمعة	١٨٨٥	رمادي	"
غازو	سعدان توجان	دغمان أم أمر	١٨٧٩ أو ٨٠	أبيض	"
سعيدة	خيل جلالة	صقلاوي جدران	١٨٨٤	أحمر	"
خمرة	خانداني سمري	خيلان نواق	١٨٨٤	كستنائي	"
شقراء	منيحي بن شيل	ابيان شراق	١٨٨٣	أحمر	"
ياالله ١	صقلاوي عبيران	منيحي خضرج	١٨٨٠	أحمر	"
بدوي ١	منيحي بن شيل	خمداني سمري	١٨٧٨	أبيض	"

كتب "شرباتوف" : "تحتل الخيول العربية دائماً أهمية بالغة لتحسين تربية الخيول في مختلف البلدان . ومثل قطرة عطر تعصر من ألف وردة تنشر رائحتها لوقت طويل ينقل الخيل العربي صفاته المتميزة إلى سلالات عديدة في المستقبل"[٢٩] . وتم توفير الخيول للاستيلاد لاصطبلات كل من الكونت "ستروجانوف" والدوق "شرباتوف" و "يلسكي كوستروفتسيف" و "شورينوف" والدوق "سانجوشكو" و "كوبيز" و "اكديلي" والدوق "رادزيفيل" وغيرهم .

وأحب الروس الخيل مثل العرب . وكانت روسيا في طليعة بلاد العالم في عدد الخيول التي تمتلكها . وحددت روسيا أساليب علمية لتحديد أصالة خيول السباق . وحدثت الزيارة الأولى للدوق "شرباتوف" وزوجته "شرباتوفا" مع الكونت "ستروجانوف" للخيول العربية في عام ١٨٨٨م بعد سفر طال ٤,٠٠٠ كيلومتر وكان دليلهم "نصر بن عبد الله" وهو بدوي من قبيلة "رسالين" من السبعه من عنزة . وتمت الزيارة الثانية في عام ١٩٠٠م[٣٠] .

وفي أكتوبر ١٨٩٩م كانت دائرة الخيول الأصيلة للكونت "ستروجانوف" الواقعة في مركز تربية الخيول الأصيلة بالقرب من "بياتيجورسك" في شمال القوقاز، كانت تشتمل على ٩ فحول و ٢١ فرساً و ٣٦ رأساً من الحيوانات الصغيرة . (وكانت لدى دائرة كابرديان العربية ٣٣٢ راساً و٩٠ فرساً) .

ويقيِّم "بي سيتينين" الحصان العربي كحيوان لا مثيل له في قوة التحمل، وحسب رأيه، توجد أحسن الخيول في نجد ولكن بأعداد قليلة — ليس أكثر من ١٠,٠٠٠ حصان معظمها من سلالة ٥ أفراس (ولذلك فالخيول التي كانت للرسول (ص) خمس سلالات فحسب . ويورد الحاج "سليم جيري سلطانوف" أيضاً أقوالاً ممتازة عن الخيول من كتابات "أبو بكر بن بدر الدين" الذي عاش في القرن الثالث عشر[٣١] .

والجمل هو "سفينة الصحراء" في شبه الجزيرة العربية . وليس الجمل مجرد حامل البضائع الذي لابد منه، بل يوفر الحليب أيضاً، (لكن الروس لا يستسيغونه) . كذلك يوفر اللحم والصوف، الذي يعتبر أجود من صوف الغنم . وأحسن الجمال تربية هي "هجين" أو "ذلول" . وتستطيع الجمال أن تجتاز الطرق الوعرة بسرعة من ١١ إلى ١٥ كيلومتراً في الساعة، ويمكنها البقاء ستة أيام دون ماء تزيد حتى عشرة أيام في الشتاء .

ولا يسمح لبعض الحيوانات الحاملة للأثقال الدخول إلى بعض المدن مثل المدينة المنورة حيث تقف القوافل بعيداً عن تلك المدن . وكذلك الحال بالنسبة للمجازر .

وأما الأغنام فتوجد في شمال الجزيرة العربية حيث تتم تربيتها هناك . وتتسم بآذانها الطويلة وصوفها الطويل .

وأما الحيوانات البرية فمنها الظباء والغزلان (وقد كتب عنها الكتاب الروس الذين شاهدوها من قبل) ومنها الماعز الجبلي والقطط البرية والضباع والنمور والقرود . كما توجد الكثير من الطيور، منها النعام والبجع والدجاج الحبشي والصقور والنسور . كذلك يوجد العديد من الثعابين والضِّباب الكبيرة في الصحراء . ودهش قارئ روسي عندما عرف بأن العرب يأكلون الضباب الكبيرة والجراد المخلل .

ولقد أورد "دافليتشين"، الضابط في جيش القيصر الذي ابتعث إلى الحجاز رسمياً، تقريراً مفصلاً عن التجارة، غير أن تقريره لم يكن في متناول يد الأكثرية من الروس لفترة طويلة(٣٢) .

وتأتي البضائع الأوروبية بصورة رئيسية عن طريق استنبول، كما ترد الأغذية من مصر، ويأتي الحرير والملابس من دمشق وبيروت وبغداد والبصرة . وتبيع إيران السجاجيد، وتأتي العطور من الهند، وبضائع مختلفة من المستعمرات، أما روسيا فتصدر الأخشاب والطحين والكيروسين والسماور . وفيما يلي قائمة بالأسعار في مكة المكرمة :

البضائع بالوزن أو الحجم	السعر في موسم الحج	السعر العادي
رطل اللحم	١٢ كوبيك	١٨ كوبيك
الطحين (النوع الثاني)	٢٥ كوبيك	٢٧ كوبيك
الزبد	٤٠ كوبيك	٣٥ كوبيك
زيت الزيتون	٥٥ كوبيك	٥٠ كوبيك
الدهن	١٥ كوبيك	١٨ كوبيك
الشاي الأسود	٧٠ كوبيك	٧٠ كوبيك

البضائع بالوزن أو الحجم	السعر في موسم الحج	السعر العادي
الشاي الأخضر	١٠٠ كوبيك	١٠٠ كوبيك
السكر	١٧ كوبيك	١٨ كوبيك
الشمع عديم اللون	٢٦ كوبيك	٢٥ كوبيك
الكيروسين	٦ كوبيك	٦ كوبيك
رطل الخبز شبه الأبيض	٩ كوبيك	٦ كوبيك

ويلاحظ أن الأسعار في المدينة المنورة لمعظم البضائع أقل مما ذكر، فاللحم والطحين أرخص بكثير هناك، وكذلك الدهن . أما عن السكر والشموع والكيروسين والخبز المحمص فتكلفتها أكثر من ذلك .

وتزدهر التجارة المحلية والساحلية وفي مقدمتها المواد الغذائية والوقود والمصنوعات اليدوية والمفارش المصنوعة من أوراق النخيل والمراوح والحبال والمواد الصوفية السميكة وغيرها . ويباع السمك ومنتجاته واللؤلؤ والمرجان وعروق اللؤلؤ والسلاحف والأصداف على خط الساحل . كما يزداد الطلب على الأعشاب الطبية والصلب وأدوات الزينة الفضية . ومازالت تجارة الرقيق مستمرة وتشمل ٢٠٠٠ من الأرقاء سنوياً ومعظمهم من السودان والحبشة ومنهم الأطفال . ويعامل الأرقاء برفق . ويشتري الأثرياء من الحجاج العبيد بقصد تحريرهم لأن تحرير العبيد يعتبر من أحسن الأعمال لإرضاء الله حسب ما ورد في القرآن الكريم .

وتستخدم العملات من كافة أنحاء العالم في التعامل في التجارة بنظام مصرفي متطور جداً غير أن الحسابات شديدة التعقيد وتحتاج لاستخدام الورق في التسجيل . ويساوي الروبل الفضي الروسي من ١٢ إلى ١٣ قرشاً وهو نافع . وترتفع قيمة النقود الورقية الروسية فالمائة روبل منها تساوي ٩٠ روبلاً ذهبياً .

وتكلم جميع الكتاب الذين نقلت عنهم المعلومات المستخدمة في هذا المطبوع عن لباقة العرب وكياستهم أثناء التعامل معهم في مختلف الأغراض[٣٣]، ومثال على ذلك

فعندما يكون "شرباتوف" أو زوجته في ضيافة أحدهم ويدخل على الجالسين بالسكن فيقوم كل الحاضرين ولا يجلس منهم أحداً قبل أن يجلس الضيف . و مصدر آخر يقول بشأن المكيين : "أنهم معروفون بكرم الضيافة لدرجة الإسراف"[٣٤] .

ويقول "دولتشين" : "إن أهل المدينة المنورة كرماء في الضيافة ومستأنسون وودودو الطبع ومستعدون دائماً ليمدوا يد المساعدة عند الحاجة . وهم أصدقاء مخلصون أثناء السفر" . ويضيف قائلاً بأن هذه الصفات موجودة بصفة عامة بين الحجازيين[٣٥] .

وحسب ملاحظاته، تتمتع النساء العربيات بحرية أكثر من التتريات في روسيا فتذهب الكثيرات منهن إلى السوق بمفردهن، ومنهن الشاريات ومنهن البائعات .

ويقول "ستينين" : "بصفة عامة، العرب من شبه الجزيرة العربية يتمتعون بالذكاء وهم مؤدبون وميالون للمساعدة، ويحبون الملابس الفاخرة ويزينون بيوتهم بذوق سليم ويتزاورون فيما بينهم كثيرا ويستقبلون ضيوفهم بكرم وترحاب"[٣٦] . وتتميز غرف الجلوس في بيوت أثريائهم بسلامة الذوق وبالمفروشات المزينة وفيها المتكآت والمخادع للجلوس وتغطي السجاجيد الفرش بالكامل، وتعلق المرايا على الجدران، وكثيراً ما يوجد السماور الروسي المزين بالنقوش والآيات القرآنية، في المحراب .

ويقدمون الطعام لضيوفهم بوفرة ومنها الأرز التقليدي ومختلف أنواع اللحوم، ثم القهوة والشاي الأسود (كلاهما قويان) بالإضافة للفواكه . ومن المأكولات الممتازة يذكر مخلل الجراد المحضر مسبقاً .

ويهتم جميع الكتاب كثيراً بالحجاج الروس، ويورد "دافلتشين" بعض الإحصائيات إذ يبلغ عدد الحجاج الروس حسب تقديره من ألفين إلى ثلاثة آلاف حاج ويصل في بعض السنوات إلى أربعة آلاف وخمسمائة حاج . وفي عام ١٨٩٩ لم يزد عدد الحجاج عن ٤٥٠ حاجاً بسبب العائدة على جوازات سفرهم، وكانت أعمار معظمهم تتراوح بين الخمسين والستين عاماً، ولم يصطحب سوى ٤ أسر منهم أطفالها .

وفيما يلي نسبة الحجاج حسب أوطانهم وجنسياتهم : ٢٥٠ من القرغيز — و١٠٠ من القوقاز (أكثرهم من ولاية "بريفان" — و ١٠٠ من التتر – و ٦ من الجزء الأوروبي لروسيا أي من سان بطرسبرج، ومن "ريازان" ٢١ حاجاً ومن "بنزا" اثنين، ومن "كازان"

١٦ حاجاً ومن موسكو اثنان، ومن أسفل ولاية "نوفوجورود" ٨ حجاج، ومن ولاية "سمبرسك" ١٤ حاجاً، ومن "الفا" ١٢ ومن "سمارا" ٧ حجاج ومن "اورين برج" ٩ ومن أستراخان" ٧ حجاج، وحاج واحد من "توبولسك" . ولم يخرج للحج أحد من"تركستان ومنطقة عبر بحر "قزوين" و "القرم"[٣٧] .

وكانت الجمعية الجغرافية الإمبريالية ورؤساء تحرير الجرائد والمجلات والكتب راغبين في إطلاع الروس بجغرافية وتاريخ وديانة وثقافة وتجارة البلدان وشعوب شبه الجزيرة العربية . ويرجع لهؤلاء الفضل في إلقاء الضوء على هذه المنطقة وتقريب الأمور التي كانت بعيدة عن أفهامهم . وقدم "ستينين" خدمة ممتازة فقد كان أول روسي يعمم وينظم المعلومات عن الشرق الأدنى والمنطقة المجاورة لحدوده .



الشيخ نصر (ناصر) بن عبد الله بدوي من قبيلة رسالين من السبعة من عنزة

الهوامش

1 - P.A Stenin. "East-The Countries of the Cross And Crescent and their inhabitants (Historical Geographic View" St. Petersburg. 1892. pp. 341-372.

2 - ibid.p. 392.

3 – A.G. Sherbatov, S.A. Stroganov "The Book About the Arabian Horse" St. Petersburg 1892. pp. 341- 372.

4 - ibid.p.80.

5 - "The Travel Notes of Two Hajis"..... Kazan, 1882. p.1-44.

6 - ibid, p.1-44.

7 - St. Petersburg Gazette. 1829. N100-101.

8 -"Galatea" 1829. V. 3 N14. pp.153-160.

9 - "Odessa's Gazette". 1832. N99-101. pp. 393-404.

10 – "A Magazine of Different Subjects of Literature". 1805. V. 2.

11 - "European Gazette" 1803 and 1819.

12 - "Reading Library" 1852. V. 112, pp. 139-144; 1854, V. 127 p. 115.

13 - "Russian Invalid". 1856. N.169-170.

14 - "World Traveler". 1872. N8 pp.1-71.

15 - "Caucasus". 1868. N43, 45,46.

16 – Davletshin: "A report of the staff-captain Davletshin on his official trip to Hijaz." St. Petersburg 1899 pp. 61-62.

17 - ibid, pp. 53,54.

18 - ibid, p. 59-60.

19 - Physical Geography. 1901. b.1-2 p.100.

20 - Davletshin: " A report of the staff-captain Davletshin on his official

trip to Hijaz" St. Petersburg. 1899 p. 55.

21 - Physical Geography, 1901. b. 1-2. p. 100.

22 – Davletshin: "A report of the staff-captain Davletshin on his official trip to Hijaz", St. Petersburg, 1899 pp. 61-62.

23 - "Physical Geography" 1901. b.1-2 p.125.

24 - Davletshin : " A report of staff captain Davletshin on his official trip to Hijaz". St. Petersburg. 1899. pp. 67-68.

25 - P.A. Stenin: "East - The Countries of the Cross & the Crescent and their Inhabitants" (Historical Geographical Review). St. Petersburg. 1892. pp. 348-349.

26 - ibid, p. 345.

27 - AG. Sherbatov. S.A. Stroganov: "The Book About Arabian Horses". St. Petersburg. 1900 p. 32.

28 - O.A. Sherbatova: "Astride in the motherland of Bedouins in search of thoroughbred Arabian horses". St. Petersburg. 1903. pp. 199-216.

29 – A.G. Sherbatov, S.A. Stroganov. "The Book About the Arabian Horse". St. Petersburg. 1903 pp. 33-34.

30 - ibid. pp. 32-36. pp. 42-46.

31 - "Physical Geography", 1901. b. 1-2. pp. 110-111.

32 - "Devletshin": "A report of the staff-captain Devletshin on his official trip to Hijaz. St. Petersburg. 1899. pp. 44-45.

33 - P.A. Stenin, "East-the countries of the Cross & Crescent and their Inhabitants (Historical, Geographical and Ethnographical Review). St. Petersburg. 1892. p. 348.

34 - Davletshin, "A report of the staff-captain Davletshin on his official trip to Hijaz." St. Petersburg 1899. p. 55.

35 - ibid. p. 56.

36 - P.A. Stenin. "East - the countries of the cross and crescent and their inhabitants", (Historical Geographical and Ethnographical Review". St. Petersburg. 1892. p. 349.